الإنسان والأخلاق ، من يصنع من ؟ فلسفة الأخلاق (5)

ما العلاقة بين الإنسان وأخلاقه؟ هل الإنسان هو الذي يصنع شخصيته من خلال اختياراته وأفعاله، أم أنّ الأخلاق التي يكتسبها تعود فتشكّل شخصيته وتوجّه اختياراته اللاحقة؟

لا يكون الإنسان عند ولادته شخصيةً مكتملةً في جميع أبعادها الأخلاقية، كما أنّه لا يبقى طوال حياته صفحةً بيضاء تتشكّل من غير تأثيرٍ من اختياراته وأفعاله. فهو يولد مزوّداً باستعداداتٍ وقوى وميول، ثم يدخل في مسيرةٍ طويلة من التربية والتعلّم والتجربة والاختيار، تتكوّن خلالها صفاته الأخلاقية، وتتشكّل ملامح شخصيته.

قال تعالى : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل 78 :

وهنا تبرز مسألةٌ عميقة في فلسفة الأخلاق: هل الإنسان هو الذي يصنع شخصيته من خلال أفعاله، أم أنّ شخصيته الأخلاقية هي التي تصنع أفعاله وتوجّه اختياراته؟ وهل يمكن أن يكون الإنسان في الوقت نفسه صانعاً لأخلاقه ومتأثّراً بها؟

إنّ فهم هذه العلاقة يساعدنا على إدراك حقيقة المسؤولية الأخلاقية، وكيفية تشكّل الهوية الإنسانية، والدور الذي تؤدّيه الاختيارات اليومية في صناعة مستقبل الإنسان وكماله.

لكنّ هذه العملية لا تسير في اتجاهٍ واحد؛ فالإنسان يصنع أخلاقه من خلال ما يختاره ويمارسه، ثم تعود هذه الأخلاق لتؤثّر في طريقة تفكيره، وطبيعة دوافعه، ونوعية قراراته واختياراته اللاحقة.

أولاً: الإنسان ليس شخصيةً مكتملة منذ البداية

لكلّ إنسان استعداداتٌ فطرية، وقوى نفسية، وميول مختلفة، لكنه لا يولد وقد اكتسب بالفعل جميع الفضائل والرذائل التي ستظهر في شخصيته لاحقاً.

فالشجاعة، والصدق، والرحمة، والصبر، والعدل، ليست جميعها صفاتٍ مكتملةً يولد الإنسان بها، بل تحتاج إلى تربيةٍ وممارسةٍ واختيار حتى تترسّخ في نفسه. وكذلك الرذائل، كالكذب والحسد والكبر والظلم، قد تنمو في النفس نتيجة الاسترسال مع دوافعها، وتكرار الأفعال التي تغذّيها.

وهذا لا يعني أنّ الإنسان يبدأ من فراغ؛ فهناك استعداداتٌ فطرية، وظروفٌ وراثية وبيئية وتربوية تؤثّر في تكوينه، ولكنّها لا تستنفد حقيقة شخصيته ولا تحدّد بصورةٍ مطلقة ما سيصبح عليه.

فالإنسان يواجه في حياته مواقف متعددة، وفي كلّ موقف تتاح له فرصةٌ للاختيار: هل يلتزم بالصدق أم يختار الكذب؟ هل ينصف من يختلف معه أم ينحاز إلى مصلحته؟ هل يضبط غضبه أم يستسلم له؟ هل يعترف بخطئه أم يبحث عن تبريره؟

وقد تبدو هذه الاختيارات صغيرةً ومتفرّقة، لكنها تسهم في بناء الشخصية التي سيصبح عليها الإنسان في المستقبل.

ومن هنا يمكن فهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

فالآية تلفت النظر إلى أهمية التغيير الداخلي في حياة الإنسان، وأنّ إصلاح الواقع لا ينفصل عن إصلاح النفس وما يستقرّ فيها من أفكارٍ ودوافع واتجاهات.

ثانياً: كيف يصنع الإنسان أخلاقه؟

يصنع الإنسان جانباً مهماً من أخلاقه من خلال اختياراته المتكرّرة؛ فكلّ فعلٍ اختياريّ يمارسه لا يترك أثراً في الواقع الخارجي فحسب، بل قد يترك أثراً أيضاً في نفسه وشخصيته.

فحين يختار الإنسان الصدق، رغم قدرته على الكذب، فإنّه لا ينجز موقفاً أخلاقياً صحيحاً فحسب، بل يدرّب نفسه على احترام الحقيقة. وحين يختار العفو مع قدرته على الانتقام، فإنّه يساهم في تنمية

الحلم وضبط الانفعال. وحين ينصف الآخرين رغم تعارض الإنصاف مع مصلحته، فإنّه يعزّز في نفسه صفة العدل.

وهكذا يصبح الفعل الأخلاقي أكثر من مجرّد سلوكٍ عابر؛ إذ يشارك في تكوين الهيئة النفسية التي ستؤثّر في سلوك الإنسان لاحقاً ، عن أمير المؤمنين عليه السلام: " عَوِّدْ نَفْسَكَ الْجَمِيلَ، فَبِاعْتِيَادِكَ إِيَّاهُ يَعُودُ لَذِيذًا " شرح نهج البلاغة، ج 20، ص 266، رقم 92

وهنا تتجلّى أهمية التكرار والممارسة؛ لأنّ الفضيلة لا تتحوّل إلى ملكةٍ راسخة بمجرّد صدور فعلٍ واحد، بل تحتاج إلى الاستمرار في ممارستها حتى تصبح اتجاهاً مستقراً في النفس.

قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: " وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ " نهج البلاغة، الكتاب رقم 31 .

ومن هذا المنطلق، لا ينبغي للإنسان أن يستهين بالاختيارات اليومية الصغيرة؛ لأنّ الشخصية لا تتكوّن في لحظةٍ واحدة، بل تتشكّل تدريجياً من خلال مواقف قد لا يلتفت الإنسان إلى أهميتها.

فالكذبة التي يبرّرها الإنسان اليوم قد تهيّئ نفسه للتساهل في الكذب غداً، والتنازل المتكرّر عن الحق قد يضعف حسّ العدالة لديه، كما أنّ الصدق والإنصاف وضبط النفس، حين تتحوّل إلى ممارسةٍ مستمرة، تسهم في بناء شخصيةٍ أكثر استقامةً واتزاناً ، قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطفّفين: 14 ، فالأعمال لا تنتهي بانتهاء ممارستها، بل قد تتراكم آثارها حتى تحجب القلب وتغيّر قابليته للإدراك والاستجابة للحق.

وقد جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: " وَحَلِّنِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، ... وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي "

ثالثاً: كيف تصنع الأخلاق شخصية الإنسان؟

إذا كان الإنسان يصنع أخلاقه من خلال أفعاله، فإنّ هذه الأخلاق تعود بدورها لتؤثّر في الإنسان وتشكّل شخصيته.

وهنا تكمن إحدى أهم خصائص الملكة الأخلاقية: أنّها لا تقتصر على تسهيل صدور فعلٍ معين، بل تؤثّر في طريقة إدراك الإنسان للمواقف، وتوجّه دوافعه، وتحدّد ما يميل إليه وما ينفر منه.

عن الإمام عليّ عليه السلام: " عَوِّدْ نَفْسَكَ الْجَمِيلَ، فَبِاعْتِيَادِكَ إِيَّاهُ يَعُودُ لَذِيذًا "

وعنه عليه السلام : " مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ " نهج البلاغة، الخطبة 109

وهكذا لا تعود الأخلاق مجرد صفاتٍ منفصلة عن شخصية الإنسان، بل تصبح جزءاً من بنيته النفسية وهويته العملية.

وبهذا المعنى، تصنع الأخلاق الإنسان كما يصنعها؛ فالاختيارات تؤسّس الملكات، والملكات تؤثّر في الاختيارات، وتستمر هذه العلاقة في تشكيل الشخصية الإنسانية.

رابعاً: هل يصبح الإنسان أسيراً لأخلاقه؟

إذا كانت الأخلاق الراسخة تؤثّر في اختيارات الإنسان، فهل يعني ذلك أنّه يصبح أسيراً لصفاته وعاداته؟ وهل يمكن أن تتحوّل الملكة الأخلاقية إلى قوةٍ تقيّد حريته؟

تؤثّر الملكات الأخلاقية في اختيارات الإنسان، فتجعل بعض الأفعال أيسر صدوراً عنه، لكنها لا تسلبه حريته بالضرورة؛ فالعادة قد تُصعّب التغيير، دون أن تجعله مستحيلاً. ومن هنا تظلّ مسؤولية الإنسان قائمة بقدر وعيه وقدرته، وتظلّ مجاهدة النفس طريقاً لإصلاح صفاتها وتغيير اتجاهها.

الإمام زين العابدين عليه السلام: " وَأَبْدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَحَبَّةَ،

وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْعَفَافِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظَنِّ أَهْلِ الصَّلاحِ الثِّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ أَهْلِ الْوَلاءِ الْوَلايَةَ " وهذا دعاء بطلب تبديل الصفات والميول النفسية، لا مجرد كفّ السلوك الظاهر.

وهنا تظهر أهمية المسؤولية الأخلاقية؛ فالإنسان مسؤول عن أفعاله بحسب ما يمتلكه من وعيٍ وقدرةٍ واختيار، مع مراعاة ما قد يواجهه من ظروفٍ وضغوطٍ وقيودٍ تؤثّر في قدرته الفعلية.

ومن هنا لا ينبغي أن ننظر إلى الإنسان باعتباره أسير ماضيه الأخلاقي، ولا أن نتعامل مع أخطائه باعتبارها هويّةً نهائية لا تقبل التغيير؛ فباب الإصلاح مفتوح، والإنسان قادرٌ على مراجعة نفسه وإعادة بناء شخصيته ما دام يمتلك القدرة على الاختيار والمجاهدة.

خامساً: هل يمكن للإنسان أن يعيد صناعة نفسه؟

إنّ من أعمق المعاني التي يقدّمها التصوّر الإسلامي للإنسان أنّه ليس محكوماً بصورةٍ نهائية بما كان عليه في الماضي؛ فهو يستطيع أن يراجع اختياراته، ويصلح أخطاءه، ويغيّر عاداته، وينمّي فضائله.

لكنّ هذا التغيير لا يتحقّق بمجرد التمنّي، ولا بمجرد الشعور بالندم، بل يحتاج إلى وعيٍ بالمشكلة، وإرادةٍ صادقة، وممارسةٍ مستمرة، واستعانةٍ بالله تعالى.

وهذا هو معنى التزكية بوصفها مشروعاً متواصلاً لبناء النفس، لا مجرد معالجةٍ مؤقتة لبعض السلوكيات.

وقد عبّر الإمام زين العابدين عليه السلام عن هذا الأفق التربوي في دعاء مكارم الأخلاق، فقال:

" اللَّهُمَّ لا تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنِّي إِلَّا أَصْلَحْتَهَا، وَلا عَائِبَةً أُؤَنَّبُ بِهَا إِلَّا حَسَّنْتَهَا، وَلا أُكْرُومَةً فِيَّ نَاقِصَةً إِلَّا أَتْمَمْتَهَا "

إنّ هذا الدعاء يعبّر عن وعيٍ عميق بحقيقة بناء الشخصية؛ فالإنسان لا يكتفي بطلب إزالة العيوب، بل يطلب استكمال الفضائل أيضاً. فهو مشروع إصلاحٍ دائم، يتجاوز تصحيح الأخطاء إلى الارتقاء نحو الكمال.

سادساً: الشخصية الأخلاقية بوصفها حصيلة الاختيار ومسيرة التكامل

إذا جمعنا هذه المعاني، اتّضح أنّ العلاقة بين الإنسان وأخلاقه ليست علاقةً أحادية الاتجاه؛ فالإنسان يشارك في صناعة أخلاقه من خلال أفعاله واختياراته، ثم تسهم هذه الأخلاق في تشكيل شخصيته وتوجيه اختياراته المستقبلية.

لكنّ هذه العملية لا تعني أنّ الإنسان يخلق نفسه من العدم، أو يستقلّ عن فطرته وتربيته وبيئته وهداية الله تعالى؛ بل تعني أنّه كائنٌ مسؤول يشارك بإرادته في بناء ذاته ضمن مجموعةٍ من الاستعدادات والظروف والإمكانات.

وقد جمع القرآن الكريم بين البعد الفطري للإنسان ومسؤوليته عن تزكية نفسه، فقال تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 7-10).

فالإنسان يمتلك قابلية التمييز بين طريق الفجور وطريق التقوى، لكنه مدعوّ إلى أن يعمل على تزكية نفسه، وأن يتحمّل مسؤولية الاتجاه الذي يسلكه في بناء شخصيته.

وهنا نصل إلى حقيقةٍ مهمّة: ليست الأخلاق مجرد شيءٍ يملكه الإنسان، بل هي مما يسهم في تحديد نوع الإنسان الذي يصبح عليه.

إنّ الإنسان يصنع أخلاقه باختياراته، ثم تعود أخلاقه لتصنع ملامح شخصيته؛ ولذلك فإنّ كلّ اختيارٍ أخلاقيّ هو، في جانبٍ منه، اختيارٌ لنوع الإنسان الذي نريد أن نكونه.